محور إنقاذ الإنسان: إعادة قراءة "محورية الإمام" في الحياة الشيعية

محورية الإمام في الحياة؛ من الخلاص الفردي إلى النظام الاجتماعي

في كل نظامٍ متكامل، يُعَدّ وجود مركزٍ ثابتٍ وموثوق شرطًا أساسياً لبقاء ذلك النظام وسلامته. فالأسرة التي تخلو من مرجعٍ حاسم للقرارات، والمنظومة التي يَغيب عنها محور القيم، أو الإنسان الذي يجهل المعيار النهائي لاختياراته، يصاب عاجلًا أو آجلًا بالتناقض، ثم بالتآكل، فالتفكك.

وهذه القاعدة ليست مجرّد مبدأ إداري أو نفسي، بل هي حقيقة عميقة متجذّرة في بنية الوجود الإنساني نفسه. ولكي ينجو الإنسان من الحيرة والاضطراب، فهو مضطر إلى اختيار محورٍ يحدّد له جهة السير، ويشكّل معيارًا ثابتًا لتقويم القرارات والمواقف.

في المعارف الشيعية، لا يتمثّل هذا المحور في فكرةٍ ذهنيةٍ مجرّدة، ولا في نموذجٍ أخلاقيٍّ نظري فحسب، بل يتجسّد في «الإمام المعصوم». تنطلق الإشكالية الأساسية في هذا المقال من بيان هذه الحقيقة: كيف يمكن لمحورية الإمام في الحياة أن تكون طريقًا لإنقاذ الإنسان من السقوط الوجودي، مهما اختلفت الظروف الخارجية، وأن تقوده إلى الرضا الإلهي والسعادة الأبدية.

محورية الإمام ومكانتها في نظام علم الإنسان

من وجهة النظر الشيعية، يحتلّ الإمام مكانةً تتجاوز كونه قائدًا دينيًا أو مرجعًا فقهيًا فحسب؛ فالإمام هو حجّة الله الحيّة، وواسطة الفيض الإلهي، ومعيار التمييز بين الحق والباطل في مختلف مجالات حياة الإنسان. وعلى هذا الأساس، فإنّ محورية الإمام في الحياة تعني أن يتّخذ الإنسان الإمام مرجعًا نهائيًا للتخطيط والاختيار والعمل، لا على مستوى الشعار والادّعاء، بل في البنية العميقة لصناعة القرار.

هذه المحورية، على خلاف بعض تفسيرات عاطفية أو انفعالية، تقوم على مبدأ عقلاني خالص. فمن الذي يفتقد معيارًا ثابتًا وموثوقًا، يجد نفسه مضطرًا لجعل أهوائه المتقلّبة، أو قيم المجتمع السائدة، مقياسًا لأفعاله. أمّا الإمام، فهو المعيار الوحيد القادر بحكم اتصاله بالعلم الإلهي وتمتّعه بالعصمة، على ضمان سلامة

اتجاه يسلكه الإنسان في حياته. ومن ثمّ، فإن قبول الإمام محورًا للحياة هو في جوهره قبولٌ بنظام هدايةٍ مأمون النتائج.

كما تُعَدّ واقعة عاشوراء من أبرز تجليات عملية لمحورية الإمام في الحياة؛ إذ تُرسّخ قاعدةً مفصلية مفادها أنّ الإنسان قادر، حتى في أكثر البيئات الاجتماعية فسادًا وانحرافًا، على صيانة مسار خلاصه من خلال جعل الإمام محورًا لوجوده. وعلى العكس من ذلك، فإن غياب الإمام عن الحياة يفضي بالإنسان إلى نوعٍ من «الجحيم الوجودي» الشامل. وهذا الجحيم لا يقتصر على العذاب الأخروي، بل يمتدّ ليشمل الانهيار الداخلي، والتفكك الأسري، وعبثية الجهود، والتآكل الأخلاقي.

إن محورية الإمام في الحياة تقف على الضدّ التام من هذا المسار؛ فالإنسان الذي يجعل الإمام محورًا لخياراته، حتى وإن واجه صعوباتٍ أو حرمانًا أو ضغوطًا اجتماعية، لا ينهار، لأنّ هدفه واضح، ومعناه محدّد، ومعياره ثابت. ومثل هذا الإنسان لا ينظّم حياته وفق منطق اللذّة أو المنفعة قصيرة الأمد، بل يبنيها على أساس الخلاص النهائي والمعنى العميق للوجود.

الأسرة؛ الساحة الأولى لتحقيق محورية الإمام

تُعَدّ الأسرة البيئة الأولى والرئيسية لتجسيد محورية الإمام في الحياة. فالأسرة المتوازنة هي تلك التي يعرّف أفرادها ذواتهم في علاقتهم بالإمام، لا من خلال المصالح الفردية الضيّقة. وفي مثل هذه الأسرة، يُقبَل الإمام بوصفه «الأب المحوري»، لا بمعنى إلغاء أدوار طبيعية داخل الأسرة، بل باعتباره المرجع النهائي الذي تُوجَّه على أساسه جميع الأفعال وأنماط العيش. إنّ قبول هذه المكانة يخلّف آثارًا ملموسة في بنية الأسرة؛ إذ يقلّ الشعور بالأنانية، وتفقد الخلافات حدّتها ومعناها التفكيكي، وترتقي العلاقات من مستوى تبادل المصالح الشخصية إلى أفق الهدف المشترك. فالأسرة التي تتمحور حول الإمام تصبح بيئة حيّة، ديناميكية، وملتزمة، لا تحكمها النزوات العابرة بل القيم الثابتة.

وإذا شُبِّهت الأسرة بورشة لتربية الإنسان، فإنّ «المحور» هو العامل الحاسم في تحديد جودة مخرجات هذه الورشة. تخيّل أسرةً يُقاس فيها كل قرار جوهري، من أسلوب الحوار بين الزوجين، إلى منهج تربية الأبناء،

والتخطيط المالي، بل وحتى طريقة التعامل مع الخلافات، بسؤالٍ واحد: «هل يقرّبنا هذا الاختيار من رضا الإمام أم يبعدنا عنه؟». في مثل هذه الأسرة، لا يعود الإمام مجرّد اعتقاد ذهني أو اسمٍ مقدّس، بل يتحوّل إلى معيار عملي حيّ لتنظيم العلاقات.

وعندما يكون هذا المعيار فاعلًا داخل المنزل، تُحتوى الخلافات قبل أن تتطوّر إلى نزاعات؛ لأنّ أفراد الأسرة يرون أنفسهم مسؤولين أمام مرجع أعلى من أهوائهم الشخصية. ومع مرور الوقت، تحلّ الأهداف المشتركة محلّ المصالح الفردية، وتتحوّل الأسرة من كيان عاطفي هشّ إلى وحدة منسّقة وموجّهة.

هنا تحديدًا تتجلّى الأسرة بوصفها الساحة الأولى والأكثر فاعلية لتحقيق محورية الإمام؛ ساحةٍ يتدرّب فيها الإنسان عمليًا على تنظيم حياته وفق حقيقة ثابتة. وكما أنّ حضور الإمام في الحياة يُفضي إلى انتظامها، فإنّ غيابه عنها يؤدّي إلى اضطراب الأسرة وتفكّكها. ومن ثمّ، فإنّ «تحوّل الحياة إلى جحيم» في ظلّ هذا الغياب ليس مجرّد استعارة بلاغية، بل نتيجة واقعية لخيار وجودي خاطئ.

هذا الاضطراب يتجلّى في تآكل العلاقة الزوجية، وأزمات تربية الأبناء، وشيوع الملل والتوتّر الدائم. وفي مثل هذه الظروف، تفقد حتى الجهود الأخلاقية تماسكها الداخلي. أمّا محورية الإمام في الحياة، فإنها تعيد لهذا الكيان وحدته وانسجامه؛ إذ تُنظَّم جميع مكوّنات الأسرة في علاقتها بحقيقةٍ أعلى تمنحها المعنى والاستقرار.

اختبار الصدق في العلاقة بالإمام

يُعَدّ من أعمق معايير قياس علاقة الإنسان بالإمام تلك العبارة المتكرّرة في معظم نصوص الزيارة: «بأبي أنتَ وأمي ونفسي ومالي وأُسرتي». فهذه العبارة لا تمثّل مجرّد تعبير تعبّدي أو وجداني، بل تشكّل اختبارًا معرفيًا ووجوديًا حقيقيًا. إذ تتحوّل محورية الإمام في حياتنا إلى تعبير صادق فقط عندما يكون الإنسان مستعدًا، في قراراته الواقعية والعملية، لتنسيق أولوياته مع رضا الإمام.

هذا الاختبار يخرج الإنسان من وهم المحبّة اللفظية، ويدفعه إلى مراجعة جادّة وصادقة لاختياراته. فهناك ارتباط مباشر لا يمكن إنكاره بين صدق العلاقة الفردية بالإمام، وبين تحمّل المسؤولية الاجتماعية

والسياسية. فإذا قبل الإنسان، في خلوته، بصدقٍ أن حياته وماله ومكانته تُعرَّف في علاقتها بالإمام، فإنّ هذا الصدق لا بدّ أن ينعكس في سلوكه الاجتماعي العام.

على سبيل المثال، فإنّ الشخص الذي يجعل الإمام بالفعل معيارَه النهائي، لا يمكنه أن يبقى غير مبالٍ تجاه اختيار مسؤولين غير صالحين، أو تجاه شيوع الظلم، أو ضياع حقوق الناس؛ لأنه يدرك أنّ كل قرار اجتماعي ينتهي في جوهره، إمّا إلى نصرة الإمام أو إلى عزله. وبالمقابل، حين يغيب هذا الصدق على المستوى الفردي، تنحدر الأفعال الاجتماعية تدريجيًا إلى منطق المصلحة الشخصية والانتهازية السياسية.

ومن هنا، فإنّ نصوص الزيارة، كزيارة الجامعة الكبيرة، ليست مجرّد نصوص عبادية، بل تشكّل جسرًا يربط الإيمان الداخلي بالمسؤولية الاجتماعية والسياسية، وتُظهر أنّ العلاقة بالإمام تُختبَر في الخلوة كما تُختبَر في ساحة المجتمع.

انطلاقًا من هذا الفهم، ينبغي أن يكون الهمّ الاجتماعي موجّهًا نحو رفع المظلومية والغربة عن الإمام. فمحورية الإمام في الحياة على المستوى الاجتماعي تعني القبول بمبدأ واضح: لا يجوز تسليم إدارة المجتمع إلى الخائنين والمفسدين. والمجتمع الذي يتجاهل هذا المعيار، حتى لو بلغ ذروة التقدّم المادي، سيظلّ يعاني من انعدام الأمن، وتفشّي الفساد، وانهيار الثقة.

ومن القضايا المهملة، رغم مركزيتها، في نسيج حياتنا الاجتماعية، مسألة غربة الإمام وتنحيته. فهذه الغربة ليست تعبيرًا عاطفيًا أو توصيفًا تاريخيًا فحسب، بل واقعًا اجتماعيًا ملموسًا: إذ إنّ المجتمع الذي لا يجعل الإمام محورًا، يتركه عمليًا في العزلة. وفهم هذه الحقيقة يحوّل محورية الإمام من خيار فردي إلى مسؤولية جماعية، تجعل الإنسان حساسًا تجاه الصمت أمام الظلم والخيانة.

ولا ينبغي فهم غربة الإمام بوصفها حالة وجدانية مجردة؛ فهي في حقيقتها علامة على انفصال المجتمع عن معيار الهداية الإلهية. فكلّما اتُّخذت القرارات المصيرية على أساس الخوف، أو الانتهازية، أو المصالح قصيرة الأمد، لا على مدار الحق، كان الإمام عمليًا على الهامش، حتى وإن كان اسمه حاضرًا على الألسن.

فالمجتمع الذي يصمت أمام ظلمٍ صارخ، أو فسادٍ هيكلي، أو خيانةٍ من المسؤولين، يرفع عمليًا عن كاهله عبء المسؤولية، ويترك الإمام وحيدًا؛ لأنّ وليّ الله لا يُنصر بالشعارات، بل بإحياء معاييره في ساحة العمل. ومن هذا المنظور، تتحوّل غربة الإمام إلى محرّك للمسؤولية الاجتماعية، إذ يدرك الإنسان الواعي أنّ لامبالاته تساهم في هذه الغربة، وأنّ الطريق الوحيد لتقليصها هو الحضور المسؤول، والاختيار الواعي، والثبات في مواجهة الظلم.

على هذا الأساس، ترتقي محورية الإمام في الحياة من مستوى الاعتقاد الشخصي إلى التزام اجتماعي وتاريخي، تتعلّق به سلامة الحياة الأخلاقية للمجتمع.

في الختام، فإنّ محورية الإمام في الحياة ليست مجرّد نصيحة أخلاقية أو توجّه روحي، بل مبدأ خلاصي في نظام الوجود الإنساني. تبدأ هذه المحورية من داخل الفرد، وتترسّخ في الأسرة، وتثمر في المجتمع وعيًا ومسؤوليةً سياسية واجتماعية. والإنسان الذي يجعل الإمام محورًا لحياته، حتى في أقسى الظروف، لا يضلّ طريق الخلاص. ومثل هذا الإنسان، ومثل هذه الأسرة، لا ينقذان نفسيهما فحسب من جحيم الوجود، بل يُمهّدان أيضًا لتشكيل مجتمع يتحرّك، بدل الانهيار، في مسار رضا الله وتحقيق الوعد الإلهي.